العدد الخامس والعشرون
2008

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1376 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2008 مسيحي

- دقة التعبير في نهايات الآيات القرآنية
- الإيقاع النثري (صوره وخصائصه)
- صورة بلنسية في الموروث الأندلسي
- دور الإسلام في التواصل بين مناطق الساحل والصحراء الإفريقية

مساهمة التجّار المسلمين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا إبّان العصور الوسطى

أ. حسن علي الشيخي
جامعة الجبل الأخضر - كلّية الآداب

إن العلاقات بين أبناء القارة الأفريقية قديمة قدم التاريخ، فمنذ العهد الفينيقي عرفت القارة نوعاً من الاتصال عن طريق التجارة وطرق القوافل، حيث كان الفينيقيون يوجهون قوافلهم ومراكبهم صوب أفريقيا للاستكشاف وبناء علاقات تجارية وصلات اجتماعية[1].

(1) أبو سعد، علي، العلاقات الثقافية بين الشعوب الأفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، (مراجعة عبد الحميد الهرامة)، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص17.

وإذا كانت هذه العلاقات في الماضي تقوم على التجارة، فقد صارت مع مرور الأيام تشمل جميع مناحي الحياة. . ويشير أحمد زكي إلى اتصال عرب الشمال الأفريقي، بسكان جنوب الصحراء قائلاً: «. . . كما دفعت التطورات الاجتماعية والأحداث السياسية في الشمال الأفريقي، عبر تاريخ بعض الأهالي إلى اختراق الصحراء والاستيطان بين أهاليها، والاندماج معهم، وكان ذلك في البداية عن طريق حركة القبائل من الرعاة الذين اعتادوا على الغزو والتنقل من مكان لآخر بحثاً عن الخصب، ثم مالبثت أن تحولت إلى إقامة دائمة بعد الفتوحات الإسلامية، من ثم اتسع نطاقها، وتنوع تأثيرها، واكتسبت الدوام والاستقرار»[2].

إن المتتبع لتاريخ هذه العلاقات يجد أنها تميزت بالتكامل الاقتصادي استيراداً وتصديراً وإنتاجاً، وبالترابط الحضاري ديناً وأخلاقاً وتعاوناً. ولم نجد أثراً للافتراء الذي روَّج له بعض الكتاب المستشرقين، من أن تلك العلاقات تميزت بقيامها على جنس أرقى قادم من شمال الصحراء وآخر أدنى يقطن جنوبها. كما أنهم ادعوا أن الصحراء كانت تمثل عائقاً يفصل بين شمال القارة وجنوبها.

إن ذلك الادعاء غير مقبول وعار عن الصحة؛ لأن الصحراء أدت دوراً كبيراً في تنشيط التواصل بين الأقطار المحاذية لها شمالاً وجنوباً[3].

فعندما تأسست مدينة تمبكتو في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، توافد عليها التجار والعلماء من مصر وغدامس وفاس وغيرها[4].

---

(2) زكي، عبد الرحمن، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، 1961م، ص164 ـ 167.

(3) حركات، إبراهيم، دور الصحراء في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، (د ـ ت)، ص27 و28.

(4) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، طبعة هوداس، مطبعة بروين، انجي، 1858م، ص20 و21.

وبالإضافة إلى دور التجار فإن طرق القوافل والمراكز التجارية كانت تمثل شرياناً أساسياً للحياة الاقتصادية في بلاد السودان الغربي، وقد ظلت في الوقت نفسه إشعاعاً للمؤثرات الثقافية، حين أصبحت المحطات المنتشرة على طول طرق القوافل التجارية عبر الصحراء الكبرى أماكن لتواصل الأفكار تأثراً وتأثيراً[5].

هذا وسنتطرق إلى أهم طرق القوافل التجارية القادمة من الشمال الأفريقي، إلى جنوب الصحراء في متن هذا البحث.

لقد ارتبط الشمال الأفريقي، بالسودان الغربي ووسطه وشرقه، بروابط تجارية وثقافية، وقد شجعهم على ذلك غنى القارة وإنتاجها لسلع كثيرة وخاصة سلعة الذهب المطلوبة في العالم الإسلامي وأوروبا، مما شجع على اجتذاب التجار المسلمين الذين أدوا دور الوساطة لترويج هذه البضاعة فأقيمت الطرق التي تصل العرب بمنطقة جنوب الصحراء، وكان من أهمها الطرق التي كانت تخترق الصحراء الكبرى من الحواضر العربية على البحر المتوسط، مثل الاسكندرية، وطرابلس، وتونس، والجزائر، أو المراكز الكائنة على تخوم الصحراء، مثل توات، وتلمسان، وسلجماسة، وغدامس، وفزان، وزويلة(*) وودان(**) وورجلان(***)، وغيرها باتجاه منطقة السودان الغربي والأوسط،

---

(5) التكتيك، جميلة أحمد، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير، (1943 ـ 1528)، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، 1998م، ص152.

(*) زويلة: تطلق على عدة مواضع، منها أحد أرباض المهدية ـ بتونس. كما تطلق على أحد أبواب القاهرة، وكذلك قصبة فزان ـ وهي المقصودة هنا، والتي ظلت طيلة العصر الوسيط الميناء الشرقي للتجارة الصحراوية مع بلاد السودان حتى تأسيس مرزق في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهي التي سلبتها دورها التجاري، ينظر: Depois, Jean, Encyclopédie de L'Eslam, Articl, «Fazzan» T. II, pp. 895 - 898.

(**) ودان: تُطلق على عدة مواضع، أقدمها قرية في شبه الجزيرة العربية، تقع بين مكة والمدينة، كما تطلق على مدينة بأفريقية في برقة مسيرة عشرة أيام من زويلة، وهي المقصودة في البحث: ينظر: الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت، معجم البلدان، ج5، دار صادر، بيروت، 1957م، ص365، 366 وابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافية، (ت، إسماعيل العربي)، المكتب التجاري للطباعة، بيروت، 1970م، ص127.

(***) ورجلان: ورقلة الحالية، تأسست عام (467هـ ـ 1074م)، بواحات الجزائر، إثر =

وحتى حزام الغابات الاستوائية في الجنوب، والذي زاد من أهمية هذه الطرق، كونها تقوم بدور الوساطة التجارية بين مناطق الإنتاج المدارية والاستوائية في الجنوب، وبين شعوب الشمال الأفريقي[6].

ومع وجود النطاق الصحراوي الذي يفصل بين منطقة الشمال الأفريقي وبين السودان الغربي، فإن هذا النطاق لم يكن حاجزاً يستحيل عبوره، إذ اضطلعت حركة التبادل التجاري والاتصال السكاني بدور كبير في تواصل العلاقات الحضارية، وتنمية التبادل التجاري، مما أعطى الصحراء الكبرى أهمية قصوى في مسار تاريخ المناطق الواقعة شمالها وجنوبها[7].

ومما لا شك فيه أن هذه الطرق لم تكن من ابتكار قوافل القرون الوسطى، بل كانت موجودة منذ ما قبل ظهور الإسلام. . كما أن الصحراء لم تكن فيافي بلا عشب ولا ماء، بل توفرت بها المياه في بعض الواحات كما توفرت فيها أيضاً العيون الطبيعية، كما أنها لم تخل من الناس، بل كانت ربما المنطقة الأكثر ازدهاراً وحركة وملاءمة للإنسان[8]، والشعوب التي كانت تسكنها بعد أن اعتنقت الإسلام أصبحت مؤهلة أكثر من غيرها بنشر الخير الذي جاء به الإسلام إلى كافة الجيران. وكانت الرحلة تستغرق عبر أقصر الطرق حوالي ثلاثة أشهر في الذهاب ومثلها في العودة[9].

= تخريب سدراته قاعدة الإمامة الرستمية الثانية، في موضع قريب من أطلال هذا الموقع بإقليم المزاب، من طرق الأباضيين الفارين من سدراته، كما يُنسب تأسيسها أيضاً إلى قبيلة وارقلان التي كانت تعيش بتلك المنطقة ينظر: Lethilieux, Jean, Ouargla cité saharienne, Paris, 1983, pp. 87 - 98.

(6) طرخان، إبراهيم علي، دولة غانا الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970م، ص24.

(7) زاهر، رياض، الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968م، ص28.

(8) الحموي، مصدر سابق، ج6، ص374.

(9) العربي، إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983م ص47 وما يليها.

ورغم قسوة بعض العوامل الطبيعية، فقد كان للطرق والمسالك التجارية دور هام في نقل حضارة الإسلام إلى قلب القارة الأفريقية وإلى أجزائها الغربية[10].

ولما كانت المسافة التي كان يقطعها التجار بين الشمال الأفريقي وجنوبها الغربي شاسعة والمدة التي يقطعونها في الرحلة طويلة، لذلك قام كثير من التجار بالزواج من زوجات أفريقيات وهذا أدى إلى ظهور جيل مختلط اكتسب ديناً وثقافة مما ساعد على انتشار الإسلام[11].

ومن الجدير بالذكر أن بداية دخول الإسلام إلى مدينة غانا وما يليها من بلاد السودان كان على يد التجار المسلمين وخاصة من جبل نفوسة بليبيا، حيث يُذكر أن الشيخ علي بن يخلف النفوسي التميجاري[*] كان قد سافر إلى دواخل غانا كتاجر عام 575م وأقام بها[12] وأصبحت له مكانة لدى سلطانها الذي أسلم على يديه، وهذا ما يؤكد على أن الإسلام كان قد وصل إلى غانا قبل وصول المرابطين إليها، حيث يذكر أبو عبيد البكري أنه في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كان في مدينة الملك مسجد يصلي فيه المسلمون القادمون إلى المدينة، وكان يوجد اثنا عشر مسجداً في الحي الإسلامي في مدينة غانا[13].

---

(10) قاسم، جمال زكريا، الأصول التاريخية للعلاقات الأفريقية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1996م، ص155.

(11) الأحمر، إمحمد مصباح، تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2001م، ص174.

(*) علي بن يخلف النفوسي: يرجع أصله إلى جبل نفوسة «الجبل الغربي» ليبيا الحالية، ذهب إلى السودان الغربي للتجارة ونشر الإسلام، وقد عُرف بين السكان بدمائة خلقه وأمانته وعلمه، وعندما سمع بتقواه وصلاحه سلطان مالي [وهي مقاطعة ضمن نطاق دولة غانا الوثنية في تلك الفترة]، فأحضره إليه. واختبره ثم أسلم حتى بلغ عند سلطان مالي منزلة لم يبلغها حتى وزراؤه، ينظر: الدالي الهادي مبروك، مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع المغرب وليبيا، دار حنين للطباعة والنشر، بيروت، 1996م، ص174.

(12) الباروني، عبد الله، سُلم العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين، مصر، (د ـ ت)، ص21.

(13) البكري، أبو عبد الله عبد العزيز، المُغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب جزء من =

وكان التجار خلال الفترات التاريخية المتعاقبة يمثلون حلقة الوصل بين الشمال الأفريقي والدول الإسلامية المجاورة في جنوب الصحراء، وكانت حركة التجارة نشطة وذات بدايات مبكرة، وقد ذكر الناصري أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سلجماسة حاضرة بني مدرار، تم تواصل قوافلهم رحلتها إلى غانا وكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهاباً وشهر ونصف إياباً وكانوا يبادلون ما حملوه من سلعة بالذهب والتبر[14].

أما ليبيا فإن أهميتها تتضح في تعميق الصلات العربية الأفريقية في العصور الوسطى، حيث شكلت حلقة الوصل بين المشرق والمغرب من ناحية، وبين منطقة المغرب والمناطق الأفريقية جنوب الصحراء من ناحية ثانية، وبين المناطق الأفريقية وجُزر البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة[15]، فعبر المراحل المتعددة كانت المناطق الليبية تمثل واحدة من أهم المسالك التي استثمرتها الدويلات العربية الإسلامية في مد جسورها إلى المناطق الأفريقية جنوب الصحراء. فقد نجحت الدولة الرستمية (777 ـ 909م) في ربط صِلات اقتصادية قوية أسهمت في تنشيط تجارة الصحراء من خلال طريقين هما:

طريق طرابلس ـ جبل نفوسه ـ غدامس ـ تادمكة ثم منحنى نهر النيجر.

طريق طرابلس ـ زويلة ـ بحيرة تشاد، فكانم ثم برنو.

كما اهتمت الدولة الحفصية بتوثيق علاقاتها مع سلاطين برنو مستفيدة من بسط نفوذها على مناطق غدامس وغات وقد وصلت هذه العلاقات إلى درجة تبادل السفارات والهدايا[16]، ومن أهم السفارات التي تمت بين ليبيا ومملكة

= كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ـ ت)، ص175، مجهول كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د ـ ت)، ص220.

(14) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري)، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ص99.

(15) فخار، إبراهيم، تجارة القوافل في العصر الوسيط، ودور التجار الليبيين في حضارة الصحراء الكبرى، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م. ص49.

(16) التميمي، عبد الجليل، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب أفريقيا خلال العصر الحديث، المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982م، ص10، 11.

برنو أثناء فترة السيطرة العثمانية على ليبيا، البعثة الليبية التي أرسلها (ماهي موسى) عام 1612م والبعثة التي أرسلتها الملكة (عائشة) ثم ابنها (ألوما) عام 1570م. وقد تعددت الزيارات التي قام بها أمراء برنو إلى طرابلس وفزان[17].

والجدير بالذكر أن هذه العلاقات تميزت بكونها علاقات اقتصادية ثم تطورت إلى علاقات اجتماعية من خلال التصاهر والتزاوج بين التجار العرب والسكان المحليين في هذه المناطق الذي تعاملوا معها. وقد دأب العثمانيون بعد استيلائهم على ليبيا على السيطرة على تجارة الصحراء والتحكم في مساراتها، وهو الأمر الذي دفعهم إلى تحسين علاقاتهم مع الممالك الأفريقية مثل مملكة برنو ثم الإكثار من إرسال السفارات وتبادل المراسلات، والقيام بالزيارات التي تهدف إلى توطيد العلاقات وإحداث حركة تأثير حضاري في أفريقيا جنوب الصحراء[18].

لقد كانت التجارة والعلاقات الثقافية مزدهرة بين طرابلس وغدامس وبين مدينة تمبكتو، وقد أمدتنا المصادر التاريخية بمعلومات قيمة تكشف عن كنه هذه العلاقات، فها هو الشماخي يفيدنا بوجود اتصالات تجارية كبيرة بين بلاد التكرور ومناطق جبل نفوسة وطرابلس، وقد اهتمت الدولة الرستمية بتعزيز العلاقات التجارية مع مناطق السودان الغربي والأوسط، ووجدوا فيها الفرصة الملائمة لنشر الإسلام وإقناع رؤساء القبائل الأفريقية باعتناق الدين الإسلامي[19].

كما عرفت الصحراء حركة تجارية نشطة قادمة من طرابلس وغدامس متجهة إلى مملكة مالي، إذ كانت طرق القوافل التجارية التي تربط المنطقتين زاهرة بحركة التجارة المستمرة، متمثلة في البضائع الوافدة من الأسواق

(17) المرجع نفسه، ص13.

(18) عبد الجليل التميمي، مرجع سابق، ص13.

(19) الشماخي، أبو العباس أحمد، كتاب السير (مخطوط)، دار الكتب، القاهرة، ورقة 170.

الأوروبية عبر البحر المتوسط وكان تجار طرابلس وأوجلة وفزان وبرقة يتولون نقلها إلى بلاد السودان الغربي[20].

ويؤكد لنا ابن بطوطة الذي زار المنطقة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، عُمق الاتصالات الاقتصادية بين غدامس ومملكة مالي في تلك الفترة: «. . ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين، دليلهم مقدمتهم الحاج وجين»[21]، وقد ساعد على ازدهار الحركة التجارية بين غدامس ومالي المصنوعات الغدامسية التي كانت تنتج أجود أنواع الجلود في تلك الفترة. وقد أشار إلى ذلك البكري ومن بعده الحموي، حيث قال البكري: «وعلى وادي درعة شجر كثير وثمار عظيم، وهناك شجر التاكوت يشبه الطرفاء، وبهذا التاكوت يُدبغ الجلد الغدامسي[22]، أما ياقوت الحموي فقال: «. . . تدبغ فيها الجلود الغدامسية وهي من أجود الدباغ لا شيء فوقها [يفوقها] في الجودة كأنها ثياب الخز في النعومة»[23].

وما من شك في أن التجار القادمين من ليبيا وتونس وفاس كانوا عندما يمارسون حرفة التجارة بعيداً عن بلادهم، فإنهم عادة ما يمكثون فترة من الزمن، بسبب طول المسافة التي يقطعونها ومشقة الطريق التي تنهك جزءاً من صحتهم وتضني دوابهم، الأمر الذي يفرض على التاجر الاستراحة في الأسواق التي يروجون فيها بضائعهم، لذلك تجده مضطراً لبناء مسكن يقيه برد الشتاء وحر الصيف طيلة فترة إقامته.

وبما أن الغدامسيين كانوا من أكثر التجار وروداً على منطقة السودان

(20) حسن، حسن إبراهيم، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م، ص104.

(21) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1964م، ص696.

(22) البكري، مصدر سابق، ص152.

(23) الحموي، مصدر سابق، ص187.

الغربي، ولأن بضائعهم قد تحتاج إلى وقت ليتم ترويجها ومنهم من يطيب له المقام بالمنطقة، ومنهم من يتحول إلى داعية ومدرس لعلوم الدين والفقه، لذلك كونوا حياً في مدينة تمبكتو سُمي حي الغدامسية وهو أحد أرقى الأحياء في مدينة تمبكتو، وقد كان على درجة عالية من الأناقة وتناسق البناء وانتظام الشوارع[24].

والذي يؤكد الأهمية الإستراتيجية لهذا الحي، أنه عندما وصلت الحملة المراكشية إلى تمبكتو، في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وقع اختيارها على حي الغدامسية لإقامة قصبة الحكم فيه، لامتيازه بموقع إستراتيجي ووجود مباني راقية به.

وقد أوضح المؤرخ السعدي ذلك حين قال: «. . . ثم إنهم دخلوا في داخل المدينة يوم الخميس السادس من شعبان المنير وطافوا في المدينة وطالعوها ووجدوا أكبرها عمارة حومة الغدامسيين فاختاروها للقصبة»[25].

وقد سلك التجار الليبيون عدة طرق صحراوية من وإلى السودان الغربي كان أهمها:

1 ـ طريق من تادمكة ـ القيروان، مروراً بورجلة ومن تادمكة إلى طرابلس مروراً بغدامس[26].

2 ـ طريق تبدأ من ساحل البحر المتوسط وتتجه جنوباً مارة بغدامس وغات وأغاديس، ثم تتجه منه إلى الغرب مارة بتكدا إلى جاو على نهر النيجر ثم إلى تمبكتو[27].

---

(24) السعدي، مصدر سابق، ص142، أحمد الفيتوري، الجاليات العربية المبكرة في بلاد السودان، مجلة البحوث التاريخية، مركز دراسات جهاد الليبيين، طرابلس، 1981م، ص25.

(25) السعدي، مصدر سابق، ص142.

(26) البكر، مصدر سابق، ص164.

(27) إبراهيم، محمد عبد الفتاح، أفريقيا من نهر السنغال إلى نهر جوبا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرةو 1961م، ص72.

3 ـ طريق ورجلة ـ تادمكة ـ كاغو[28].

وكان المغرب الأقصى هو الآخر قد ارتبط بعلاقات تجارية وثقافية بالسودان الغربي خصوصاً أيام ازدهار مملكة مالي الإسلامية، خاصة أن المرابطين الذي أعطوا الإسلام سنداً سياسياً وعملوا على نشره، كانوا قد انطلقوا في رحلتهم الجهادية والتبشيرية من المغرب الأقصى، لنشر العقيدة الإسلامية في السودان الغربي.

هذا وقد اهتمت مملكة مالي الإسلامية بالتجارة وشجعت عليها بين شمال وغربي القارة، حيث كانت القوافل التجارية تجوب الصحراء، متجولة بين أهم المراكز التجارية في المنطقة وتلك التي في المغرب الأقصى، خاصة أيام ازدهارها في القرن الثامن الهجري/ الخامس عشر الميلادي[29].

وكان التجار من فاس وسوس ومراكش وسلجماسة ودرعة وتوات، يحملون الملح، الذي يبادله لهم التجار السودانيون، ويحملونه بدورهم إلى هقار وميت ومتبر ودور وشحار وغيرها من المناطق الأخرى.

ولم يكن الملح البضاعة الوحيدة التي تأتي من الشمال الأفريقي، بل ضمن سلع أخرى وكانت تصدر إلى السودان الغربي، كالأصواف والأسلحة والملابس والأحذية[30].

كما أن التجار المغاربة في القرن التاسع الهجري/ السادس عشر الميلادي عملوا على نقل بضائع أوروبا إلى غرب أفريقيا جنوب الصحراء، مثل الأقمشة

---

(28) البكري، مصدر سابق، ص164.

(29) الفشتالي، أبو فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، (تحقيق عبد الكريم كريم)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط 1972م، ص117 و118.

(30) بلعراف، أحمد، إذولة الريب والشك والتفريط في ذكر العلماء المؤمنين من أهل التكرور والصحراء وشنقيط مخطوط رقم 494، مركز أحمد باب التمبكتي، تمبكتو، مالي، ورقة 18 ـ 20.

مقابل أن يورد هؤلاء التجار الذهب والعاج وأنياب الفيل وبيض النعام[31].

ومن أهم الطرق التجارية التي كانت تربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي، حتى نهاية مملكة مالي الإسلامية:

1 ـ الطريق القادم من المغرب الأقصى، ماراً بسلجماسة وتوات إلى تمبكتو[32].

2 ـ طريق ينطلق من غانا ـ موجادور ـ فاس عن طريق أودغست[33].

3 ـ طريق تمبكتو ـ موجادور ـ فاس عن طريق منجم تغازا[34]

4 ـ طريق تبتدئ من درعة، ويقطع في خمس مراحل للوصول إلى وادي تارجا، حيث تسير في أرض قاحلة لمدة ثلاثة أيام، ومن بعده نجد آبار مياه، مثل بير تزامتي وبير الجمالية وبير تاللي لكن مياهها، غير عذبة، ثم تستمر الطريق إلى أدرار، ومن أدرار إلى أرض صنهاجة ومنها إلى غانا[35].

لقد كان التواجد المغربي كبيراً في السودان الغربي، حيث توافد التجار المغاربة إلى السودان الغربي، خصوصاً أيام ازدهار مملكة مالي كما سبق الإشارة، وذلك لأجل ترويج سلعهم ونشر الرخاء في المنطقة إضافة إلى التبشير بالدعوة الإسلامية السمحاء[36].

هذا وقد تغلغل عرب الشمال الأفريقي في مملكة مالي الإسلامية وفي

(31) زبادية، عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د ـ ت)، ص51.

(32) شلبي، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، ج7، مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1963م، ص197.

(33) جمال زكريا قاسم، مرجع سابق، ص20.

(34) المرجع نفسه والصفحة.

(35) البكري، مصدر سابق، ص163.

(36) ابن بطوطة، مصدر سابق، ص696.

السودان الغربي بكامله لغرض التجارة ونشر الإسلام، بل منهم من تصاهر مع سكان المنطقة المحليين ويذكر ابن بطوطة الذي جاء إلى المنطقة برفقة قافلة خرجت من مراكش وفيها جماعة من تجار سلجماسة عام 753هـ/ 1352م، بأنه عندما وصل إلى قرية زاغري بأيوالاتن، وهي قرية يسكنها تجار السودان، ويسكن معهم جماعة من البيضان[37]. وجود العرب في كل مكان وطأته قدماه، فعندما اقترب من مالي كتب إلى جماعة من عرب الشمال الأفريقي ليكتروا له داراً، وكان منهم محمد بن الفقيه الجزولي، وشمس الدين بن النقويش المصري، وعلى الزودي المراكشي، وعندما مرض وهو بمالي عالجه طبيب مصري[38].

وكان عرب الشمال الأفريقي يتمتعون بمكانة وحضوة لدى سلاطين مالي، حيث كان مترجم السلطان من البيضان، كما أن أواصر النسب بينهم كانت متينة وما زواج ابن الفقيه المقري ببنت عم السلطان المالي[39]، إلا دلالة على عمق العلاقات الاجتماعية التي كانت تربطهم بالعرب.

ومن الدلائل على وقوع تصاهر بين التجار العرب المسلمين الذين عاشوا في المنطقة وحكامها ما أورده الحسن الوزان من أن: «. . . الملك زوج اثنين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما»[40].

ومن الذين اشتهروا بمزاولة التجارة مع مالي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تاجر يُدعى المقري، وكان مقيماً في سلجماسة، وله أربعة إخوة تجار: اثنان في مدينة تلسمان، واثنان في مدينة ولاتة على طريق تمبكتو، وكان المقري يقوم بإرسال الصفقات التجارية، ويستقبل من إخوته في تلمسان

(37) المصدر نفسه، ص680.

(38) المصدر نفسه، ص681 و682.

(39) المصدر نفسه والصفحات.

(40) الوزان، حسن بن محمد، وصف أفريقيا، (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر)، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ص166.

البضائع الأوروبية والمغربية، ثم ينقلها إلى شقيقيه في ولاتة ليبادلوها ببضائع السودان الغربي من جلود وعاج وتبر ورقيق ويرسلانها إلى المغرب الأقصى سنوياً في قافلة كبيرة[41].

لقد حمل هؤلاء التجار بضائعهم المختلفة لترويجها في السودان الأوسط والغربي، كما حملوا في ركاب قوافلهم التجارية الإسلام والحضارة الإسلامية واللغة العربية، فحيثما حلت قوافلهم حل مَعَها الإسلام ونما معه التعليم، كما حملوا عادات وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة. ولم يكن هؤلاء التجار كلهم طلاب ربح ومال، بل كان فيهم صفوة ممتازة من الفقهاء والعلماء الذين طلبوا تجارة الدنيا والآخرة معاً، فاختلطوا مع سكان المنطقة في الأسواق والمدن والقرى وبثوا فيهم دين الله الحنيف[42].

وغني عن البيان أن التجار المسلمين كانوا يرتادون مناطق السودان الغربي لغرض التجارة، وقد تعاظم دورهم التجاري والتبشيري، عندما توفر الأمن على طول الطرق التجارية القادمة من الشمال الأفريقي والمتجهة صوب المراكز التجارية في السودان الغربي. وقد تواصل دور التجار التبشيري من خلال تزايد نفوذهم السياسي في الأوساط الحاكمة واتصالهم بمختلف الشرائح الاجتماعية، وقد أصبح الإسلام بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار بنجاح مع المماليك الإسلامية في غرب أفريقيا[43].

ولم يقتصر دورهم على الدعوة، بل قاموا ببناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن الكريم، وهكذا أضحى التجار يقومون بمهمة الدعوة للإسلام،

(41) بنعبد الله، عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية معلمة الصحراء، مطبعة فضاله، الرباط، 1976م، ص19.

(42) الدكو، فضل كلود، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص125.

(43) الجمل، شوقي عطا الله، دور العرب الحضاري في أفريقيا: ضمن العرب وأفريقيا: الجذور التاريخية والواقع المعاصر، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1987م، ص162.

مستخدمين كافة الوسائل المساعدة، وكان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بالسكان ـ كما سبق الإشارة ـ أن حدث التزاوج والتصاهر مع عديد من الأسر المحلية في المنطقة ما أدى إلى انتشار الإسلام تدريجياً في تلك الأنحاء[44].

لقد جاءت الأفكار والتعاليم الإسلامية مع التجارة، وأصبحت المراكز التجارية مثل تمبكتو وجني مراكز للدعوة والفكر الإسلامي، فكان التجار ورجال العلم من الطلبة والدعاة يجلبون معهم الأفكار المحتضرة عن الحكومات الإسلامية خاصة فيما يتعلق بالنواحي والإدارية، وعملوا مترجمين ونُساخ وماليون لمعظم ممالك السودان الغربي[45].

ونظراً لخبرة هؤلاء التجار وسمو أخلاقهم ودرايتهم بالسياسة والإدارة سهل لهم النفاذ شيئاً فشيئاً في وسط الحاشية، حتى أصبحوا عناصر لا غنى عنها، ولما كانت السلطة الدينية قوية في يد الملوك والسلاطين كان هؤلاء التجار بحكم خبرتهم يتوصلون إلى العمل كمستشارين للملك وبهذه الكيفية يضمنون لأنفسهم حماية الملك، والتي عن طريقها يستطيعون خلق أسواق تجارية يقيمون فيها المساجد لتأدية صلاتهم وعباداتهم، فتجذب إليهم عامة الناس التي تضمر لهم التقدير والاحترام[46].

والجدير بالذكر أن التجار استطاعوا إدخال ملوك المنطقة في الدين الإسلامي بفضل ما وصلوا إليه من مراكز سامية في ممالك السودان الغربي، وعن طريقهم كانت الحاشية والطبقة الحاكمة تعتنق الإسلام، ثم بعد ذلك

---

(44) حسن، يوسف فضل، «الجذور التاريخية للعلاقات العامة الأفريقية» ضمن العرب وأفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984م، ص39.

(45) Awe, Bolanle, Empires of western sudan Athousand years of west African history Ibadan Univ, press, Ibadan, 1967, p.57.

(46) Froelich, J.C, Essai sur Les causes et Méthodiés de L'Islamisation de L'Afrique de L'ouest de xi^{e} siécle au xx^{e} siécle, «Islam in Tropical Africa», oxford univ press, 1969, p. 1969.

تتبعهم الرعية، لأن هذه الممالك، كانت تنقسم إلى طبقات اجتماعية متدرجة، على الطبقة الارستقراطية والطبقة العسكرية، فإذا دخلت هاتان الطبقتان الإسلام فهذا يعني دخول بقية أفراد الشعب في الإسلام[47].

ومن العوامل التي ساعدت التجار على القيام بمهمتهم التبشيريَّة، هو قدرتهم على لفت أنظار الأفارقة بكثرة وضوئهم، ومحافظتهم على أوقات الصلاة، وخشوعهم أثناء تأديتها، إضافة إلى سموهم العقلي والخُلقي الأمر الذي جعلهم يفرضون احترامهم على أهالي المنطقة الوثنيين[48] الذين بدؤوا يعتنقون الدين الإسلامي أفواجاً.

وبعد اعتناق الأفارقة في هذه المناطق الإسلام، قاموا بالدور نفسه الذي قام به التجار والدعاة، ومن أشهر القبائل الأفريقية التي اعتنقت الإسلام وتحمست لنشره قبائل الماندنجو بفرعيها الديولا والسوننك، حتى إن كلمة سوننك صارت مرادفة لكلمة داعية[49].

وإذا كان لهؤلاء التجار دور هام في نشر الإسلام في تلك المناطق، فقد أدى هذا إلى مضاعفة النشاط التجاري بين الشمال الأفريقي وغربها، حيث أصبح للتجارة مكانة خاصة، ووجدت طبقة جديدة من التجار العرب والأفارقة، نتج على إثرها إنشاء العديد من المراكز التجارية التي أدت أدواراً هامة في حياة المنطقة، وبهذا أصبح التجار يشكلون طبقة متميزة في المجتمع، بل إن بعض القبائل الأفريقية اتخذت من التجارة حرفة رئيسة عرفت بها، وأصبحت في المدن التجارية الهامة أحياء خاصة بالتجار العرب وقد شيدوا فيها منازل خاصة للإقامة فيها، وشيدوا فوقها مستودعات لتخزين بضائعهم، كما حرص هؤلاء

---

(47) Froelich, op, cit, p. 169.

(48) أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، (ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970م، ص391.

(49) طرخان، إبراهيم علي، دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973م، ص55.

التجار على تعليم أبنائهم، فبنوا المساجد والمدارس بالتعاون مع نظرائهم من التجار الأفارقة المحليين، فكان ذلك سبباً للاختلاط والامتزاج والتبادل الثقافي والحضاري بين التجار العرب وإخوانهم من مسلمي السودان الغربي[50] بل إن الكثير من أولئك التجار تزوجوا من تلك القبائل فظهر عنصر جديد يتقن العربية ويتحدثها بطلاقة إلى جانب لغته الأفريقية، ووجدت مجتمعات إسلامية عربية التطلع والمصير أفريقية التربة والوجود، قامت بدورها في نشر الإسلام في داخل القارة الأفريقية في العصور الوسطى[51].

وهكذا انتشر الإسلام وبشكل تدريجي في كل ربوع غرب أفريقيا جنوب الصحراء عن طريق التجارة وعبر الأقاليم الصحراوية الكبرى في إقليم المراعي والشجيرات القصيرة جنوبي الصحراء، وتطرق في بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسي[52].

الخاتمة:

اهتم هذا الحديث بإبراز الدور الفاعل الذي لعبته التجارة والتجار في حياة منطقة غرب أفريقيا وما أحدثته من تغيرات اجتماعية وسياسية.

فكان للتجارة في غرب أفريقيا وجنوب الصحراء دوراً بارزاً وأثراً بالغاً في نشر الإسلام وحضارته، وهذا يدل على صلة وانتشار الإسلام بها، فحيثما حلت التجارة حل الإسلام في ركابها، وإذا ما برزت مدينة تجارية كان يؤمها البائع والمشتري، سرعان ما تتحول إلى مراكز ثقافية يؤمها المعلم والمدير، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك، أضحت أماكن لتبادل السلع والأفكار، وقد تغلب الجانب الاقتصادي على بعض المراكز مثل مدينة جني،

(50) قداح، نعيم، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص125.

(51) فضل كلود الدكو، مرجع سابق، ص125.

(52) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص74.

والتي كانت سوقاً للمسلمين؛ يقول عبد الرحمن السعدي بأنها: «سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب من معدن بيط وكلا المعدنين المباركين ما كانت مثلهما في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة. . . ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق من جميع الآفاق»[53].

كما ساد العلم والثقافة في مراكز أخرى مثل مدينة كانو، في الوقت الذي اشتهرت فيه مدينة تمبكتو بالتجارة والثقافة والعلم، ونستدل على ذلك بما أورده السعدي نفسه، وهو الذي ولد وترعرع فيها وتعلم العلوم بها فقال: «. . . هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة التي هي مسقط رأسي، وبغية نفسي ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين، وملتقى الفلك والسيار، فجعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم. .»[54].

لقد كانت القوافل تصل إلى تلك المراكز من الشمال الأفريقي عبر الصحراء، موردة إليها الخيل والسيوف والأقمشة والملح، ثم تعود مُحملة بالذهب والأخشاب ومنتجات المناطق الاستوائية[55].

هذا وقد أدى التجار دوراً مهماً في نشر الدين الإسلامي في تلك البقاع، وبالرغم من أن كثيراً منهم لا يجيدون علوم الفقه الإسلامي، لعدم استطاعتهم بعض الأحيان من التفرغ له، لكن معظمهم قام باستقدام الفقهاء والعلماء لهذه المناطق، ليتولوا تعليم الناس أمور دينهم وشرح حضارته لهم، وعمد بعض التجار إلى بناء المدارس والمساجد خصوصاً أولئك الذي استقروا في هذه

(53) السعدي، مصدر سابق، ص11 و12.

(54) المصدر نفسه، ص20 و21، أحمد شلبي، مرجع سابق، ص194.

(55) Davidson, Basil, The lost cities of Africa, Boston: little, Brown, 1970, p90.

المراكز وصاهروا فيها، وامتزجوا مع سكانها، لذلك رأوا من الواجب القيام بهذه الخطوة، حتى يتمكنوا من تعليم أبنائهم ومن اعتناق الإسلام من المنطقة، بل تعدوا مرحلة التشييد والتعليم إلى اختيار النجباء والمتقدمين من السكان المحليين وإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في الشمال الأفريقي مثل الجامع الأزهر، وجامع القرويين وغيرهما ليتلقوا مزيداً من العلم ليعودوا فقهاء وقادة للفكر الإسلامي في بلادهم(56).

كما لعب ثراء التجار المسلمين آنذاك دوراً كبيراً في تحسين صورة الإسلام في غرب أفريقيا، حيث ساهموا في الأعمال الخيرية، وتمكنوا من بناء المنازل الجميلة، وما حي الغدامسية إلا دليل على ما كان عليه التجار من ثراء، كل هذه العوامل مجتمعة جذبت إليهم قلوب الأفارقة فاعتنقوا هذا الدين السمح.

وكان التجار المسلمون يقيمون الصلاة سواء كانت فرداً أم جماعة أم جمعة ولا يشربون الخمر ولا يأتون المنكر، فجذبت هذه الصفات الحميدة كثيراً من السكان المحليين للانضمام إلى الدين الإسلامي.

وقد تمكن الكثير من التجار من مصاهرة رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ، مما ساعد على دخول هؤلاء الرؤساء في دين أصهارهم فتتبعهم باقي القبيلة.

كما لعبت التجار أيضاً دوراً في وصول الإسلام إلى الطبقة الحاكمة في بعض ممالك غرب أفريقيا، فمع ازدياد العلاقات التجارية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، تطور الحضور الإسلامي في هذه الممالك مثل مملكة غانا، كما تواجد المستشارون المسلمون في البلاط الملكي(57)، وهذا ساعد على توطيد وتعزيز الإسلام في تلك المنطقة.

---

(56) أحمد شلبي، مرجع سابق، ص206.

(57) Nanji, Azim, A, ced, The Muslim Almanac New york, Gale Research Inc, 1996, p47.

وأبرز هذا البحث أيضاً أهمية الشمال الأفريقي في تعميق الصلات العربية الأفريقية بالاعتماد على ليبيا والمغرب كنموذجين للتواصل العربي الأفريقي خلال العصور الوسطى، كما تم التطرق إلى المركز التجارية وما عكسته من انتقال المؤثرات والتأثير والتأثر بين السكان المحليين والعرب القادمين من الشمال.

استشهد الباحث أيضاً ببعض النصوص المصدرية التي تبرز دور التجار والمراكز التجارية في نشر الإسلام وحضارته.

كما تم التطرق إلى دور طرق القوافل في تيسير حركة التجار بين الشمال والجنوب، ومساهمتها في مد جسور العلاقات العربية الأفريقية في تلك الفترة.